

تمثل الفكر الديني في رواية "العشق المقدس" لعزالدين جلاوي

Religious thought was represented in Izz Al-din JLAUJI
s novel of sacred and secular love

محمد الصادق بروان

جامعة مولود معمري (الجزائر)

berr_sadek@hotmail.fr

تاريخ النشر: 2021/08/01

تاريخ القبول: 2020/07/16

تاريخ الاستلام: 2019/12/07

ملخص: جرت أحداث الرواية في الجزائر، يقوم بطلها برحلة مع حبيبته "هبة" من مدينة تيمرت زمن الرستميين إلى مدينة الجزائر، يبحثان عن طائر عجيب، يحدوهم الأمل في أن يوصلهما إلى سعادة أبدية. أثناء الرحلة يشاهدان ارتكاب المجازر ويمران بالأهوال والمخاطر، ويستمعان إلى خطابات كلها تحريض لاسترجاع الملوك الضائع. تمثلت الرواية فكرا دينيا مرجعيته الاعتقاد بافتراق الأمة إلى فرق متنافسة على المقدس الأعظم / الرأسمال الرمزي، وعن هذا التنافس المحموم نتجت الحروب الأهلية والمجازر الطائفية، لاعتماد كل طائفة على المثلث الأنثروبولوجي: العنف – المقدس – الحقيقة.

كلمات مفتاحية: الرواية، المقدس، الراهب، الطائر العجيب، المعصومة، المركبات الشبحية

Abstract: The story took place in Algeria, where the hero goes on a trip with his beloved "Heba" from the city of Tyhert to the city of Algiers in the **Rustamid dynasty**, looking for a wondrous bird, that they hope it will bring them to an eternal happiness. During the trip, they witness massacres, pass through horrors and dangers, and listen to speeches inciting to retrieve the lost possessions. This novel represents a religious thought that believed in dividing the nation into rival teams for the Great Holy / symbolic capital. The fierce rivalry generated civil wars and sectarian massacres due to the adoption of the anthropological triangle: violence, sacred and truth by each sect.

Keywords: Novel, sacred, monk, wondrous bird, infallible, stealth vehicles.

مقدمة:

تعدّ الرواية الموسومة بـ "العشق المقدنس" لصاحبها عز الدين جلاوي من الأعمال اللافتة في عملية استحضار التاريخ واستلهامه أداة أساسية في التقويض والتفكيك نظرا لتشابه الأحداث بين الماضي والآتي، بعد الاستنساخ الحاصل. فالأزمة إذا اشتدت بالأمة، فإن الأمل يتعلق بالمستقبل، عند استعصاء الحلول في الراهن. إن توظيف الرموز الدينية والأسطورية أمر مألوف في التراث العربي الإسلامي متمثلا في الاعتقاد بعودة المسيح، أو انبعاث كل من: المهدي المنتظر والسفياني، يستشفّ من هذه الرموز الرغبة في البحث عن مخلص للأمة في زمن المحنة.

لما كانت الرواية تستمد الخيال بناء للآمال، انتظر البطل "الطائر العجيب" الذي يأتي بعد صراع دام مع قوى الظلام، إذ (لا بدّ أن تخوضا جبالا من لجج الظلام، بحثا عن الطائر العجيب)¹. إن بإمكان القارئ الغوص في بلاغة الاستعارة لاكتشاف المخفي والخيالي في لفظتي: الطائر، العجيب. فالشعوب البدائية، تميل دوما إلى "العجيب المدهش" الذي تحمله لفظة "المقدنس" حين تفكيكها إلى المقدس الممتزج بالمقدنس في زمن القبح والرداءة، ذلك لأن معنى العجيب المدهش - Merveilleux - أو الخارق للعادة بصفته مقولة نفسية ثقافية منتشرة في المعاني الدينية، وحتى اليوم نلاحظ أن تصور الوحي لا يزال مهيمنًا عليه من قبل هذا المعنى، بصفته الأرضية الثقافية القاعدية التي تركز عليها المعرفة الأسطورية التي يدعوها المؤمنون بالحقيقة الدينية².

تلك هي المتناقضات أو المفارقات المجتمعة في رواية "العشق المقدنس" التي عُدّت نموذجا للتحليل والتشريح، وقد جرت أحداثها في الجزائر، ما بين مدينة تيارت والعاصمة، في العشرية السوداء حيث الصراعات المذهبية التي أدت بالأمة إلى حروب طائفية، ذلك ما جسده الرواية المرتكزة على ثلاثة محاور، كما يبدو من تفكيك وقائعها:

- 1- البطل يسافر رفقة صديقه "هبة" من تيارت إلى العاصمة بحثا عن الطائر العجيب، وأثناء الرحلة يلقيان مخاطر وأهوالا.
- 2- الأهوال التي شهدها الصديقان، هي الحروب الدائرة بين الإخوة الأعداء، بسبب سوء فهم حديث نبوي نص على افتراق الأمة إلى فرق عديدة، واحدة منها ناجية وغيرها ضالة مضلة، والطامة الكبرى

¹ - عز الدين جلاوي، العشق المقدنس، دار الروائع للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2014، ص08.

² - انظر: محمد أركون، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، تر: هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت، ط2، 2005، ص30.

في اعتقاد كل طائفة أنها "الفرقة الناجية" وبالتالي فرض رأيها بالقوة على الطوائف الضالة المضلة. وكان لكل فرقة من هذه الفرق أمير أو خليفة ، إذا جلس يترك خلفه راية كبيرة كتب عليها "لا إله إلا الله" وتحته بالضبط "إن الحكم إلا لله"³.

3- راهب اعتكف على البحث والدراسة، جاب الأرض من شرقها إلى غربها، ترجمت بحوثه إلى مركبات شبحية طائفة ، تقذف هذه الفرق بإبر إلكترونية.

تقتصر هذه الدراسة على كلمات مفاتيح ، تبدأ من العنوان :العشق المقدس ، فالعشق سفهته التنظيرات القديمة بدرجات متفاوتة، بلغ الذروة في كتاب "ذم الهوى" لابن الجوزي، الذي يرى أنه ضرب من الحمافة، حين كرّس فيه (جهودا كبيرة لكي يبرهن على أن العشق بؤس ينبغي اجتنابه)⁴. رفضه إنسان الحضارة رغبة منه في إحياء ذهنه وقتل فؤاده ، يقول شاعر :

كأس الهوى والخمر واحدة كلّ مسلّطة على العقل

ولعل ما يؤكد البيت (أن الحب نقيض العمل، أو نقيض النشاط الخارجي ، والعيش بسكينة شبه مطلقة "ولكنها مفعمة بالحياة على المستوى الداخلي" هو المطلب الأول للنفس. غير أن الغرائز الحيوانية التي لا يمكن أن نستمر دون إشباعها ترغمننا من الداخل على التوجه نحو الطبيعة ابتغاء استثمارها. ونتيجة لهذا التفاعل مع الطبيعة يتولد الذهن ويتنامى. والأهم من ذلك أن تناميها يتناسب تناسباً عكسياً مع استطاعتنا العشقية)⁵. والعشق درجة عالية في سلم المحبة، فدأول مراتب العشق الميل إلى المحبوب، ثم يستحكم الهوى فيصير مودة ، ثم تزيد بالمؤانسة، وتدرس بالجفاء والأذى، ثم الخلّة، ثم الصباغة وهي رقة الشوق يولدها الألفة ويبعثها الإشفاق ويهيجها الذكر، ثم يصير عشقا. وهو أعلى ضرب)⁶.

ليس عبثاً أن تشتق اللغة العربية لفظة الهوى من الفعل هوى أي سقط. وقرنتها بالهوان الذي هو أشد حالات الذل. إنه يثبط عزائم البشر ويصرف طاقاتهم نحو الداخل ، فتنكمش قدراتهم الإنتاجية على مستوى الخارج . أما المقدس ، ففيه ثنائية تقابلية ، تجمع بين (المقدس و المندس) أو بين الدين والفكر الديني، والنقد منصب على الثاني دون الأول، فقد باتت القراءة الحداثية لهذا الفكر الديني ضرورية، مما أدى مؤخراً إلى ظهور كتب عديدة، تدعو جميعها إلى مساءلة العقل ونقده ، فالجابري كتب : نقد العقل

³ - عز الدين جلاوي، العشق المقدس، دار الروائع للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2014، ص9.

⁴ - يوسف اليوسف ، الغزل العذري ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ط2 ، 1982 ، ص22.

⁵ - يوسف اليوسف ، المرجع نفسه ، ص18.

⁶ - ابن الجوزي ، ذم الهوى ، صححه وضبطه أحمد عبد السلام عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1999 ، ص231.

العربي، وأركون تجاوزه إلى نقد العقل الإسلامي، بينما قفز نصر حامد أبو زيد إلى نتائجه: نقد الخطاب الديني، داعياً إلى تجديده. فالنقود كلها منصبة على الفكر المندس، لا على الدين المقدس. إذ (منذ اللحظات الأولى في التاريخ الإسلامي- وخلال فترة نزول الوحي وتشكل النصوص - كان ثمة إدراك مستقر أن للنصوص الدينية مجالات فعاليتها الخاصة، وأن ثمة مجالات أخرى تخضع لفاعلية العقل البشري والخبرة الإنسانية، ولا تتعلق بها فعالية النصوص).⁷

هكذا يتكلم معظم المسلمين عن الدين من غير أن يفرقوا بين ما هو منه بالضرورة وبين ما يمكن فهمه واستخلاصه منه، ذلك لأن (نقد العقل في ضوء بنية المعنى شيء متعذر، ولا يصحّ إلا متى تمّ الانتقال من بنية المعنى إلى بنية الفهم، وهو انتقال لم يحدث إلا مع الثورة المعرفية التي حدثت في النصف الثاني من هذا القرن "العشرين" رغم أن البدايات الجينية الأولى انطلقت منذ القرن التاسع عشر مع علماء اللاهوت الألمان خاصة. ورغم أن الغرب قد عاش هذه الثورة المعرفية على امتداد قرن كامل، فإن الفكر الإسلامي المعاصر ما زال متشبثاً بعراقيل الاجتهاد التقليدي بل بأشدها خطورة على نقد العقل الإسلامي).⁸ إنهم (يتحدثون عن "الإسلام" - بألف ولام العهد - دون أن يخامر أحدهم أدنى تردد ويدرك أنه يطرح في الحقيقة فهمه للإسلام أو لنصوصه. وحتى الاستناد إلى آراء القدماء وإلى اجتهاداتهم أصبح هو الآخر استناداً إلى "الإسلام" الذي كثيراً ما تضاف إليه صفة "الصحيح" فصلاً له عن "الزائف" الذي يمثل اجتهاداً آخر).⁹

الراهب: هو الشخص المسيحي، الممتنع عن الزواج، والمنقطع للعبادة، لكنه، في الرواية، ينقطع للعلم والبحث، كعبادة فضلى، لحديث نبوي صحيح، يفضل العالم على العابد كما يفضل القمر على سائر الكواكب (من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر). يبين هذا الحديث أن طريق الجنة يمر عبر طريق العلم، وأن العلماء تستغفر لهم كل المخلوقات سواء أكانت في السموات أم في الأرض بما في ذلك الأسماك في مياه الأنهار وفي أعماق البحار، ولبيان درجة العلم وقيمة العلماء، وازن الحديث بين العلماء والعابدين، وكانت النتيجة أن العلماء بمثابة الأقمار والعبادين بمثابة الكواكب، وفي

⁷ - نصر حامد أبو زيد، نقد الخطاب الديني، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط 3، 2007، ص 29.

⁸ - مختار الفجاري، نقد العقل الإسلامي عند محمد أركون، دار الطليعة، بيروت، ط 1، 2005، ص 38، 39.

⁹ - نصر حامد أبو زيد، نقد الخطاب الديني، ص 30، 31.

الأضواء المشعة منهما فرق كبير، فالعلماء سليلو الأنبياء، مما يدل على أن للأنبياء رسالة تعليمية إرشادية، وأن المعلم الأول هو الله تعالى فقم له احتراماً وتبجيلاً، تكبيراً وتعظيماً، قال أحمد شوقي :

قم للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا
أعلمت أشرف أو أجل من الذي يبني وينشئ أنفسا وعقولا
سبحانك اللهم خير معلم علمت بالقلم القرون الأولى

فالدين إنما جاء لتعليم البشر، وفي تعليمه ترقية للأفراد وتطوير للعباد وتنمية للبلاد ، فلا غرو إن صدر الإله كتابه بالأمر بالقراءة مختزلاً ذلك في خطابه لنبيه (ص) قائلاً : (اقرأ باسم ربك الذي خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) ذلك لأن القراءة هي بداية العلم وطرف في مسيرة التعليم التي إذا استكملت كانت نهايتها ابتكاراً واختراعاً لكل الحاجات الإنسانية، والتعليم يمر عبر مراحل ثلاث : استهلاك، فنقد، فإبداع، فمواصلة هذه المسيرة يؤدي إلى التغيير والتطوير.

إن العلماء حريصون على الاستزادة من العلم، مقبلون عليه، شريهون إليه، لا يشبعون منه، بنص حديث النبي (ص) القائل : (اثنان لا يشبعان : طالب علم وطالب مال)، ودعا إلى الأخذ به في كل مكان ولو كان في أقاصي الدنيا وأطراف الأرض، لما في ذلك من بناء وتغيير، أو تشييد وتعمير. يقول شاعر:

العلم يبني بيوتاً لا عماد لها والجهل يهدم بيوت العز والشرف

رغم ما للعلم من قيمة كبيرة، فإن المسلمين لا يبالون ، بينما الراهب يؤمن بأن كل ما في الوجود كتاب كبير، على المرء أن يقرأه ، يقرأ كل شيء مهما بدا له تافهاً. قرأ آلاف الكتب، تراه جالساً والكتب مترامية حوله ، متكدسة أحياناً حتى تساويه. إنه الإنسان الغربي الذي تخطى رومانسية الشرقي، وتجاوز الفكر الميتافيزيقي إلى فكر علمي، يعتكف داخل مكتبة المعصومة، وهذه التسمية مجازية ، مشحونة بالدلالة، لها قصدية ، وليست اعتباطية وفق تعبير اللسانيين. فهي تعصم من الجهل، ومن الظلم، ومن الترهات. وقد نصت الرواية على لسان بطلها أن شيخاً راهباً وَقَدَ على مكتبة "المعصومة" عصمها الله من كل شر، كأنما حاز معارف الدنيا والآخرة، إنه يأتيها كل عام. وقد حدثنا طويلاً عن رحلاته في بلاد الأندلس والمغرب واليمن والحجاز والشام بحثاً عن الحكمة. الطائر العجيب : يرمز إلى السعادة والاطمئنان ، أو إلى الحرية المنهوبة، والسلامة المفقودة، يبحث عنها البطل في كل مكان، يجعلها شرطاً لزواجه من صديقتة هبة، لأن الزواج استثمار، يتطلب الاستقرار. تساءل حين اعتراه اليأس (وأنى لهذا الطائر أن يظهر في جو موبوء بالأحقاد والفتن ؟ - هل يمكن أن نراه في هذا الموج من الحقد والظلم والتخلف؟ هل يمكن أن يخرج الجمال من القبح ؟ ربما يكون الطائر العجيب مهدي هذا العصر أو لعله مهدينا على الأقل)¹⁰.

¹⁰ - عز الدين جلاوي، المرجع السابق ، ص 115، 122.

المركبات الشيعية: تظهر تقريبا كل منتصف النهار ، وعند ظهورها ، ينقطع التيار الكهربائي ، ويلزم الجميع البيوت إلا بعض سيارات الإسعاف التي تنقل من وقع فريسة الإبر الإلكترونية. هذه الأطباق ترمز إلى التكنولوجيا العالية التي يتفوق بها الغرب على المسلمين الذين لا يزالون يناقشون قضايا هامشية، في الوقت الذي غزا غيرهم الفضاء. تتطلب هذه التكنولوجيا المتقدمة فكر إبداع وابتكار، لا فكر تكرار واجترار. الفكر النير الذي تخطى به الغرب عتبة عصر الحداثة بشجاعة ، بينما بقي الشرق خارج الحلبة ، يحاكي سلفية منغمسة في تناحر وتصارع ، تتفنن في إنتاج حروب أهلية.

أسئلة محيرة عن المركبات الفضائية ، أي أطباق طائرة أم جوارٍ مضئة ؟ إن التسمية غير مهمة، بقدر ما يهم البحث عن دورها: التجسس ، الاستعمار ، غزو الفضاء ؟ سئل المفتي عن ذلك ، حاول البحث في التراث عن الإجابة: روى النسائي عن بNDAR عن عُندُر عن شعبة عن الحجاج بن عاصم عن أبي الأسود ... مستغرقا في العنينة دون الإجابة، فرجل الدين يخوض في كل القضايا: المالية، والأجنة، علم الفلك ، والفضاء ، التكنولوجيا، وأسهل الإجابات اللجوء إلى الغيبيات، مما جعل المفتي يحيل المركبات إلى قوى غيبية ، فقال: لا أرى إلا أنها من فعل الجن، ولن يجعل الله للجن على المؤمنين سبيلا ولا سلطانا¹¹.

بنيت أحداث الرواية على حديث نبوي، هذا نصه (افتترقت المجوس على سبعين فرقة. واليهود على إحدى وسبعين فرقة. والنصارى على ثنتين وسبعين فرقة. والمسلمون على ثلاث وسبعين فرقة. والناجية أبدا من الفرق واحدة، إذ الحق من القضيتين المتقابلتين في واحدة، ولا يجوز أن يكون قضيتان متناقضتان متقابلتان على شرائع التقابل إلا وأن تقتسما الصدق والكذب. فيكون الحق في أحدهما دون الأخرى).¹² ورغم الادعاء القائل بأن الأمة المحمدية هي البشرية قاطبة ، وتسمى "أمة الدعوة" وأن المسلمين لا يمثلون إلا فرقة واحدة هي الأمة المستجابة ، مقابل أمة الدعوة التي بقيت خارج الحلبة، لأن (المراد بالأمة فيه أمة الدعوة لا أمة الإجابة ، يعني أن الأمة التي دعاها رسول الله ﷺ إلى الإيمان بالله والإقرار بوحدانيته هي المفترقة إلى تلك الفرق ، وأن أمة الإجابة هي الفرقة الناجية)¹³، فإن هناك إصرارا من بعض العلماء على أن الانقسام حاصل داخل الأمة المستجابة، والاختلاف في الفهم مشروع ما لم يحمل رسائل أيديولوجية مبطنة، يلمح إليها الجابري بقوله: (وأبعد الأمور عن الصواب في نظرنا تصنيفهم إلى فرق، ذلك لأن هذا النوع من التصنيف مصطنع تماما في حقهم، وقد رَوَّج له المؤلفون في "الملل والنحل" و"المقالات" و"الفرق" الذين التزموا، كمنهج لهم في التصنيف والتفريق، حديثا مؤضوعا نصَّ على أن أمة الإسلام ستفترق إلى ثلاثٍ وسبعين فرقة، فكان على كل مؤلف أن يُوزَّع "المتكلمين" إلى هذا

¹¹ - ينظر: المرجع نفسه ، ص36،35.

¹² - الشهرستاني ، الملل والنحل، الجزء الأول، تحقيق مُحمَّد سيد كيلاني، مصطفى الباي الحلبي وأولاده، مصر، 1967، ص13.

¹³ - سعد رستم ، الفرق والمذاهب الإسلامية، دار الأوتل، دمشق، ط6، 2008، ص389.

العدد من الفرق، يُفرّق خصوم المذهب الذي ينتمي إليه هو، ويضفي الوحدة على فرقته ليجعلها "الفرقة الناجية"¹⁴. ويرى أبو حامد الغزالي قبله أن الاختلاف حاصل، قديم قدم الإنسان، وهو إيجابي حين يوظف للإثراء والتنوع لا للتفرق والتنازع. إن (اختلاف الخلق في الأديان والملل، ثم اختلاف الأئمة في المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق، بحر عميق غرق فيه الكثيرون، وما نجا منه إلا الأقلون، وكل فريق يزعم أنه الناجي ...) ¹⁵.

لقد انصب الفكر الإسلامي للتأريخ للظواهر الإسلامية، حيث اهتم المفكرون بالأديان وتحدثوا بإسهاب عن الفرق، يحللون أسباب ظهورها، وأحقيتها في الوجود، وكثيرا ما انحازوا إلى فرقة بعينها واعتبروها محقة فيما ذهبت إليه، بينما يقدحون في غيرها ويبينون أن ظهورها كان بدافع خارجي، إذ هناك إصرار على ترجمة الحديث سلبيا لتفتيت الدين وتشتيت المسلمين، فكان هذا الفهم السقيم بمثابة بذرة، وجدت في الجزائر أرضا خصبة، أثمرت دويلات أو إمارات متناحرة، في رقعة جغرافية ضيقة، حدودها ما بين تيارت والعاصمة، حيث شاهد بطل الرواية وقائعها أثناء سفره، وكان لا يكاد يخرج من إمارة حتى يسقط في أخرى، كل واحدة تسعى إلى إقامة الحق والعدل، يردد حكماها جميعا قولهم: (لقد قدمنا دماء غالية من أجل إقامة دولة الإسلام على هذه الأرض، دولة الله ورسوله، دولة على نهج القرآن الكريم والسنة المطهرة وهدى سلفنا الصالح... ولن يهدأ لنا بال حتى نقيم هذا النهج على كل المسلمين، ندعوهم أولا، ثم نُحَمِّلُهُمْ على ذلك ثانيا إن أبوا، فإن أقمنا ذلك فيهم، وقضينا على الفرق الضالة منهم على اختلاف مذاهبهم، إذ لا مذهبية في دين الله، وجهنا سيوفنا إلى الكفرة، اليهود والنصارى ليدخلوا في دين الله أفواجا، أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) ¹⁶.

هكذا كان لكل طائفة سلف صالح، وفهم خاص للقرآن وللسنة، والجميع مستعد للتضحية بالنفس في سبيل هذا الفهم، رغم الإيمان بدين واحد، واشتراك في كتاب واحد، وانتماء إلى سلف واحد. إن للحروب مراحل وأولويات، تبدأ بالمرتدين، وتنتهي باليهود في فلسطين. إنهم يؤجلون إلى ما بعد القضاء على الفرق الضالة المضلة من المسلمين، بعدها تخوض الفرقة الناجية معاركها مع اليهود والنصارى، هذا شأن (الأديان التوحيدية الثلاثة تتنافس على المقدس الأعظم ذاته: أي على الوحي الإلهي القائل بوجود إله واحد فقط لا عدة آلهة. فهذا هو الرأس مال الرمزي لكل أديان التوحيد، وكل دين يزعم أنه يملك الحقيقة المطلقة للوحي الإلهي من دون سواه. ولهذا السبب فإن اليهود لا يعترفون بالمسيحيين الذين جاؤوا

¹⁴ - محمد عابد الجابري، المثقفون في الحضارة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط4، 2014، ص42.

¹⁵ - عز الدين عناية، العقل الإسلامي: عوائق التحرر وتحديات الانبعاث، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2011، ص211. نقلا عن: المنقذ من الضلال، ص58.

¹⁶ - عز الدين جلاوي، المرجع السابق، ص32.

بعدهم، والمسيحيون لا يعترفون بالمسلمين الذين جاؤوا بعدهم أيضا. وأما المسلمون فيعترفون بالدينين السابقين، ولكنهم يعتبرون أن أتباعهما خانوا الأمانة وحرفوا كتب الوحي التي أنزلت عليهم أو على أنبيائهم.¹⁷ وبهذا تكون خاصية هذه الأديان هي الإلغاء، إذ كل دين يسعى إلى إلغاء غيره من الأديان، بل يصل إلى إلغاء طوائف في الدين الواحد، والإلغاء يقود إلى القوة التي يلجأ إليها المتدينون لحل مشاكلهم سواء بين الأديان أو داخل الدين الواحد.

إن الحرب الشاملة بين المسلمين من جهة، ومع أهل الذمة لخياتهم الأمانة من جهة أخرى، غير مشروعة لتنصيب قانون الأمم المتحدة على مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات بين المواطنين بصرف النظر عن الدين واللون والجنس، فد (التطور الذي حدث في طبيعة العلاقات الإنسانية وفي بنية المجتمعات أدى إلى اعتماد "المواطنة" وليس "الدين" كأساس "الاجتماع البشري" وجعل "المساواة" بين المواطنين أساس "العقد الاجتماعي").¹⁸، و "الجزية" شأن تاريخي، ينظر إلى ما ورد عنها في القرآن بوصفه حكما مجمدا أو معطلا. و القرآن في "تاريخيته" يعني الالتزام باسترجاع السياق التاريخي لنزوله من أجل أن نتفهم مستويات المعنى وآفاق الدلالة.

إن القادة في الإمارات يرددون الكلام عن الضريبة الدموية المدفوعة، ويدعون جميع المسلمين "المرتدين" إلى الخضوع والاستسلام والدخول في الفرقة الناجية طوعا أو كرها، بينما يختار اليهود والنصارى بين دفع الجزية - وهي ضريبة على الرؤوس أو الأعناق تؤخذ من الذميين "اليهود والنصارى" - وبين الحرب المقدسة التي تدخلها الفرقة الناجية بعد تنازعها وفشلها وذهاب ربحها، وبعد المطالبة بدفع الجزية كضريبة تدفع على الرؤوس مقابل الحماية.

لما سمعت هبة هذا القرار، سألت رفيقها: (ألا يعرف هؤلاء شيئا آخر غير الحرب؟ فقال لها: ألم يعجبك قول شيخ الإسلام؟ فعلا أعجبني، إنها فتوى صنعت في قصور بني العباس، وبني أمية قبلهم. علّق مبتسما. إذن شيعية أنت؟ فردت غاضبة: كل هذا الهم عندي طواه الزمان).¹⁹ قد أصبح وراءها، فهو الماضي الذي ينبغي الاتعاظ به لا الانخراط فيه، لا يشغلها لتطلعها نحو المستقبل، على عكس التقليديين الذين يحيون دائما بالحنين إلى الماضي، لأنهم يرون الحياة في تدهور مستمر، فالإسلام يبدأ غريبا وسينتهي غريبا فطوبى للغرباء، أو خير القرون قرني ثم الذي يليه ثم الذي يليه، وبالتالي ينظرون إلى المستقبل بنظرة سوداوية، ويقولون: لا يصلح مستقبل هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وهي عبارة يرددها الغالبية من المسلمين التقليديين دون أن يدروا أن الإمبراطورية الإسلامية قائمة على الدماء، فالدولة

¹⁷ - هاشم صالح، هل يؤدي المقدس إلى العنف بشكل حتمي؟ مجلة "يتفكرون" العدد 5، خريف 2015، ص 64.

¹⁸ - نصر حامد أبو زيد، دوائر الخوف - قراءة في خطاب المرأة - المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 4، 2007، ص 10.

¹⁹ - عز الدين جلاوي، المرجع السابق، ص 48، 49.

الأموية لم تقم إلا بعد حروب طاحنة، أكلت أخضر المسلمين ويابسهم، والدولة العباسية لم تظهر إلا على جماجم الأمويين، وهكذا قامت دولة الممالك...

إن معرفة سر الطائر السحري الذي هو أمل النجاة، يقضي على الفتن المستوردة من بلدان لم تثمر عند أهلها، لكن بلدنا أضحى فضاء لها، فكيف تنجح كل الأفكار والمذاهب في بلادنا في الوقت الذي تنكسر في موطنها الأصلي، إنها الطبيعة تأبى الفراغ²⁰. إنه فراغ الجهل وضحالة الفكر وقلة العلم والمعرفة، فكيف السبيل إلى تحرير العقول ورفع غشاوتها؟ (كيف الخروج من السجون المغلقة، سجون الطائفية والمذهبية؟ من سهدم جدرانها ويفكك بنائها ويكشف عن تاريخيتها ويقوض مشروعاتها؟ كل فرقة أو طائفة تعتقد أنها تمتلك الحقيقة المطلقة. كل فرقة تعتقد أنها في الجنة وكل الفرق الأخرى في النار! وعن هذا الاعتقاد الراسخ تنتج الحروب الأهلية والذبح على الهوية والمجازر الطائفية. ولا يمكن تشكيل دولة الوحدة الوطنية الشاملة للجميع قبل حل هذه المعضلة الشائكة)²¹.

إن المعرفة المخزونة في "مكتبة المعصومة" هي التي تقضي على المهارات العقيمة والنقاشات البيزنطية والجدال في الغيبيات كالبحث عن مكان الله تعالى، أهو في السماء أم في كل مكان؟ والجواب يقدمه القرآن الكريم الذي يفترض أن يوحد بدل أن يشتت، لكنه الفكر الديني الذي يأبى إلا التفرقة، ينتقي من القرآن ما يخدم مصالحه ويحقق أغراضه، فيرى الله مرة في السماء، منتقيا قوله تعالى: الرحمن على العرش استوى، و مرة يراه في كل مكان فيختار قوله تعالى: فأينما تولوا فثم وجه الله، فالتكافؤ في الأدلة، يُحوّل الحوار إلى الجدال الذي يجرجر إلى العنف المسلح، وقد (علا الصراخ في الجميع، والشاب يرفع عقيرته، يلعن الشيخ، ثم دفعه فطرحة أرضاً، ثم استل سيفه مهدداً كل الفرق الضالة، وسريعا تدخل الأنصار في الصراع وتحولت المناظرة إلى معركة اختلط فيها الحابل بالنابل)²². يبدو أن مكتبة المعصومة لم تفد المسلمين في شيء، ينطبق عليهم الوصف القرآني، فهم كمثل الذين حُمّلوا التوراة ثم لم يحملوها.

إن الخطاب التحريضي التعنيفي سلاح المتدينين عبر تاريخهم الطويل، اعتقادا بامتلاك الحقيقة المطلقة، تملكها فرقة بعينها، هي الناجية، وغيرها من الفرق ضالة مضلة، تُسَفّه وتكفر ثم تقتل، متجاهلين قول علي بن أبي طالب: (القرآن بين دفتي المصحف لا ينطق وإنما يتكلم به الرجال. فعقل

²⁰ - ينظر: عز الدين جلاوي، المرجع نفسه، ص110.

²¹ - مُجَدُّ أَرْكُون، تحرير الوعي الإسلامي، تر: هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2011، ص17.

²² - عز الدين جلاوي، المرجع السابق، ص24،25.

الرجال ومستوى معرفتهم وفهمهم هو الذي يحدد الدلالة ويصوغ المعنى²³ والنصوص عامة حمالة أوجه، والشيطان يترصّد التأويل ويكمن في التفاصيل. ذلك لأن المثلث الأنثروبولوجي: العنف، التقديس، الحقيقة، موجود عند كل المجتمعات البشرية، فلا يخلو مجتمع بشري من العنف أو من التقديس أو من الاعتقاد بامتلاك الحقيقة المطلقة²⁴.

عند وصول البطل إلى العاصمة، شرع يسرد الأحداث التي مر بها أثناء سفره، واصفا الجيوش التي رآها: قمصان تصل إلى الركبة، سراويل قصيرة، لحى طويلة، مُخالفة هذه الأوصاف تخرجنا من الملة، ذلك ما استوحاه من كلام أحدهم حين اقترب إليه، مداعبا وجهه الحليق، قائلا: كأنه وجه امرأة، فاندھش البطل متسائلا: (وهل يقاس الرجال بلحاهم؟). انطلق هاربا من الإمارة متنكرا في زي النساء، يمشي ويتعثّر في جلبابه. ركب حافلة منقسمة: للرجال قسم وللنساء آخر، دخل هو جناح النساء، استدارت إليه واحدة تسأله إن كان حاضرا صلاة الجمعة البارحة عند الشيخ، لم يعرف كيف يجيب، أنقذته هبة بقولها: إنها بكماء، فطلبت منها أن تأخذها إلى أكبر راقٍ في العالم، خرجا إلى المدينة متنكرين في جلبابين، ومرّا على مكتبة، فاقتربا من شاب يوزع كتيبات مجانا، كان حظ البطل منها كتيب بعنوان "الكفر والجنون في كتابات الزنديق أركون". ولما تأملت هبة رواية، اقتربت منها البائعة هامسة في أذنها، الرواية حرام في إمارتنا، لأنها لغو وافد. ثم انطلقا إلى ساحة حضرا فيها حلقة التفقه التي اعتاد مفتي الإمارة عقدها تحت عنوان: واسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون، وسمعا أخذت فتوى عنده تتعلق بـ "ما يجب على أهل السنة تجاه الشيعة" ليختم كلامه بقول شيخ ابن تيمية في منهاج السنة "إن أصل كل فتنة وبلية هم الشيعة". وتتعالى أصوات المريدين بمحاربة الشيعة الضالين، مما شجع الأمير ليطمئنهم بعقد ملتقى عنوانه: "ملتقى أسود السنة الأخيار في محاربة العلمانيين والمعتزلة والرافضة الأشرار"²⁵.

لقد فضل الراوي/ البطل، اللجوء إلى المعصومة لعقده (علاقة صداقة قوية مع عميدها، الذي كان موسوعي المعرفة، متحرر الفكر، لا يكشف عن انتماؤه، غير أنه بدا لنا أقرب إلى الاعتزال)²⁶. وكأن البطل لا يرى من سبيل للخروج من الآفات التي تنخر أجسادنا، ومن الفتن التي تترصدنا سوى المكتبة. فضل الراوي العيش في المكتبة، وهي التي تعرفهم على حقيقة "الطائر العجيب". غرقوا يبحثون عن كتب تفسر الطائر العجيب، ثم خرجوا إلى الساحة العمومية، فوجدوا شابا يفيض حماسة، يدعو إلى إسقاط

²³ - نصر حامد أبو زيد، الإمام الشافعي وتأسيس الأيديولوجية الوسطية، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط 1، 2007، ص 27.

²⁴ - هاشم صالح، المرجع السابق، ص 67.

²⁵ - ينظر: عز الدين جلاوي، المرجع السابق، ص 48.

²⁶ - المرجع نفسه، ص 57.

الإمام عبد الوهاب، أشار إلى الراوي وحبيبته قائلاً: (أهنئكم على نجاتكم من الفئة الباغية التي اختطفتكم، وأطمئنكم إلى أن حكم الله سيمضي فيهم بالعدل والقسطاس، ما قطع رجالنا وأبناء دعوتنا آلاف الأميال من المشرق إلى بلاد المغرب إلا ليقيموا دولة العدل والحق، ولن تقوم إلا بقوة رادعة تحميها وتقيم الأمن والدعة في ربوعها)²⁷.

لقد أتوا من الشرق حاملين العواصف الآتية (من أعماق التاريخ، المحملة غبارا وعفونة، المتراكمة على جفون العقل؟)²⁸. لقد جاؤوا فريقين: الحجازي الوهابي والمصري الإخواني، والاثنين (يرفضان الفتوى حتى تأتيا من المشرق - لم تقنعهم كل الفتاوى حتى أرسلوا بوفدين أحدهما إلى مصر والثاني إلى الحجاز)²⁹ والجميع يسعى للقضاء على التراث المحلي انصرفوا باسم المدينة من تاهرت إلى تميرت، لقد كسروها بعد فتح، فهم أعداء التراث وخصوم الاختلاف، فاستبدلوا حتى شوارع العاصمة، فالعربي بن مهدي تحول إلى المجاهد الشهيد أسامة بن لادن. إن (من الملاحظ أن عقل الأنوار الذي دعا إلى التسامح وحارب العصبية الدينية والطائفية والدوغمائية والانعكاف على "مصالح" الأمة أو الملة ورفض كل ما هو خارج عن تلك "المصالح"، أقول من الملاحظ أن تلك الحداثة الفكرية فشلت في تعميم "الأنوار" الحديثة والتخلي عن ذهنية التحريم أو التكفير والحروب الدينية وإحلال ذهنية الأنسنة المفتوحة محلها).³⁰

لقد كثرت الأعداء الذين يتربصون بنا الدوائر في الداخل والخارج، ولا معنى لأعداء الخارج، إن قضينا على أعداء الداخل. هكذا (لم يعد الصراع بين الطائفتين السلفيتين فحسب، بل ظهرت طوائف مختلفة ونحل متعددة، أشهرها على الإطلاق فرق الخوارج، التي بدأت أول أمرها سرا، ثم استفحل خطرهما حين صارت بعض أحياء العاصمة من أتباعها، وصار يخطب لها في بعض مساجدها، وفرقة القرآنيين التي يشاع أن أتباعها هم من الطبقة المتعلمة، وهي فرقة لا تؤمن إلا بالقرآن، رافضة ما يضاف إليه من سنة، ومن أعمال السلف، بل وظهرت أيضا جماعات شيعية أغلبها على مذهب الإمامية، وجماعات على مذهب المعتزلة، بل وعلمانيون أيضا، يتستر معظمهم خوف عنف السلطة).³¹

لقد ظهرت فرقة القرآنيين الذين يكتفون بالقرآن على غرار أصحاب الكنيسة الإنجيلية وهم الطائفة البروتستانتية التي لا تؤمن إلا بالإنجيل، والقرآنيون حين لا يؤمنون بالسنة وهي الأقوال والأفعال

²⁷ - نفسه، ص 66.

²⁸ - عز الدين جلاوي، المرجع نفسه، ص 100.

²⁹ - المرجع نفسه، ص 79.

³⁰ - محمد أركون، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، تر: هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت، ط 2، 2005،

ص 06.

³¹ - عز الدين جلاوي، المرجع السابق، ص 113، 114.

والموافقات النبوية، إنما لظنية ثبوتها ولعدم ثقتهم في من أوصلها إلينا، بدليل وجود سنة لكل طائفة، فللشيعة الكليني وابن بابويه، ولأهل السنة البخاري ومسلم ...

اجتمع حشد كبير في شارع المجاهد الشهيد أسامة بن لادن " العربي بن مهدي سابقا " يتدافعون لقراءة مناشير تتحدث عن (معهد أنشأته الماسونية العالمية في الغرب منذ عقود، هدفه تقديم بحوث ودراسات عن الأنبياء، من زوايا نفسية واجتماعية وطبية - ارتفعت أصوات بعض الناس قائلين : الأنبياء فوق البشر، وفوق علوم البشر ومناهجهم - كل شيء أيها الإخوة يهون ما عدا أن تنتهك حرمة قبر رسول الله"ص"- فقال البطل : أعتقد أن الأنبياء فكرة وقيمة ومبدأ، وليس جسدا، لأنه ليس إلا الجانب البشري منهم، وهم سيظلون بيننا بما بذروه في البشرية من قيم سامية).³²

الخاتمة:

هكذا يكتب عز الدين جلاوي بطريقة رمزية غامضة، والنص مفتوح على كل التأويلات. المسلمون يتلاعنون، يتسافهون، يزعم كل فريق أنه على حق، وغيره على باطل، فهم بشر، تأويلاتهم متعددة، شكلت تراثات مختلفة، فهمت على أنها نقمة بدل أن تكون رحمة ونعمة، ففي الثقافة العربية الإسلامية ينخرط الخلف في خصومات السلف. وعن هذه الحروب يقول محمد أركون : (اهتم المفكرون والباحثون المسلمون بالأديان والملل العديدة ووصفوها في كتب الأهواء والملل والنحل. إلا أنهم ما كان في إمكانهم أن يتحرروا من النظرية اللاهوتية القائلة بالدين الحق من جهة، وبالنحل والأهواء الضالة من جهة أخرى. ولم تزل تلك النظرة الدوغمائية تتحكم في الذهنية المعروفة بالطائفية. فكل طائفة تدعي أن دينها هو دين الحق، وبالتالي أنها الفرقة الناجية والأخرى كلها هالكة ضالة. شاعت هذه الذهنية في المسيحية واليهودية والإسلام. وقد أيدت ولا تزال تؤيد وتعطي المشروعية لحروب متتابة متجددة في كل زمان ومكان).³³

رغم الصراع الدامي، فالأمل لم ينتزع من قلب البطل، وقد جدد وعده بالزواج، بعد وصوله إلى مشارف العاصمة البهية، الجزائر المحروسة (سنتزوج ... سيكون بيتنا عشا للمحبة والأمان)³⁴. إنه يأمل أن يُقضى على الفكر الوافد، إذ لا بد من حراسة جزائرننا من كل هذه الأفكار الهدامة، والصراعات

³² -عزالدين جلاوي، المرجع نفسه، ص 117-119.

³³ -محمد أركون، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ص 06.

³⁴ - عز الدين جلاوي، المرجع السابق، ص 30.

الدائمة. تلك هي الأفكار التي تراود البطل ، يطمح أن يكون البقاء للأصلح ، يذهب الزبد جفاء و ما ينفع الناس يمكث في الأرض.

حين يكون الأدب معبرا عن المجتمع ، يكون الأديب بوقا إعلاميا يحاكي واقعه بآلامه وآماله، والتدرج في فترات الأدب الجزائري يوصلنا إلى فترة دموية حمراء، ذاق فيها الشعب ويلات حرب قذرة أكلت الأخضر واليابس، فلم تُبقي ولم تَدّر، وقد أرخ الأدباء لهذه المرحلة ، فعبروا عن مضمونها دون الاهتمام بالأشكال التعبيرية، التي يرى فيها النقاد قلة الحياء، فأطلقوا عليها أدب المحنة أو أدب الاستعجال، لأن الإطفائي يسعى إلى إخماد النيران قبل التحقيق في أسباب الاشتعال، إذ لا يمكن لعروس أن تتزين في عرسها، حين تكون الأسرة قد فقدت أحد أفرادها، وقد تخدم هذه الاستعارة أدباءنا الجزائريين في الفترة التي دخلت البلاد في دوامة من الدماء والأشلاء، فوجدوا أنفسهم بين مطرقة الكتابة وسندان القتل والدمار، مما أنتج أدبا يصف الواقع ويتباكى عليه، يتمرد وينتقد باحثا عن حلّ لكارثة مزقت البلاد، فوقف الأدباء الجزائريون يرصدون التحولات ويلتقطون أهم الوقائع، في فترة كانت من أسوأ الفترات التي عرفت الجزائر بعد الاستقلال، حيث استفاق الشعب على واقع يدمي القلوب ويدمع العيون، فساد الخوف، وانتشر الرعب في كل مكان، ومما زاد الثوب اختراقا وتمزيقا، تلك الأيديولوجيات الإسلامية التي زرعت شوكا فأنبئت جراحا.

قائمة المراجع:

- 1 عز الدين جلاوي، العشق المقدس، دار الروائع للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2014، ص08.
- 2 انظر: محمد أركون، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، تر: هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت، ط2، 2005، ص30.
- 3 عز الدين جلاوي، العشق المقدس، دار الروائع للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2014، ص9.
- 4 يوسف اليوسف، الغزل العذري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 1982، ص22.
- 5 يوسف اليوسف، المرجع نفسه، ص18.
- 6 ابن الجوزي، ذم الهوى، صححه وضبطه أحمد عبد السلام عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1999، ص231.
- 7 نصر حامد أبو زيد، نقد الخطاب الديني، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط3، 2007، ص29.
- 8 مختار الفجاري، نقد العقل الإسلامي عند محمد أركون، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2005، ص38، 39.
- 9 نصر حامد أبو زيد، نقد الخطاب الديني، ص30، 31.
- 10 عز الدين جلاوي، المرجع السابق، ص115، 122.

- 11 ينظر: المرجع نفسه ، ص 35، 36.
- 12 الشهرستاني ، الملل والنحل، الجزء الأول، تحقيق محمد سيد كيلاني، مصطفى الباي الحلبي وأولاده، مصر، 1967، ص 13.
- 13 سعد رستم ، الفرق والمذاهب الإسلامية، دار الأوائل، دمشق، ط 6، 2008، ص 389.
- 14 محمد عابد الجابري، المثقفون في الحضارة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 4، 2014، ص 42.
- 15 عز الدين عناية، العقل الإسلامي : عوائق التحرر وتحديات الانبعاث، دار الطليعة، بيروت، ط 1، 2011، ص 211. نقلا عن : المنقذ من الضلال ، ص 58.
- 16 عز الدين جلاوي، المرجع السابق ، ص 32.
- 17 هاشم صالح ، هل يؤدي المقدس إلى العنف بشكل حتمي ؟ مجلة " يتفكرون " العدد 5 ، خريف 2015 ، ص 64.
- 18 نصر حامد أبو زيد، دوائر الخوف – قراءة في خطاب المرأة – المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 4، 2007، ص 10.
- 19 عز الدين جلاوي، المرجع السابق ، ص 48، 49.
- 20 ينظر: عز الدين جلاوي ، المرجع نفسه ، ص 110.
- 21 محمد أركون ، تحرير الوعي الإسلامي ، تر: هاشم صالح ، دار الطليعة ، بيروت ، ط 1 ، 2011 ، ص 17.
- 22 عز الدين جلاوي، المرجع السابق ، ص 24، 25.
- 23 نصر حامد أبو زيد ، الإمام الشافعي وتأسيس الأيديولوجية الوسطية ، المركز الثقافي العربي ، المغرب ، ط 1 ، 2007 ، ص 27.
- 24 هاشم صالح ، المرجع السابق ، ص 67.
- 25 ينظر : عز الدين جلاوي، المرجع السابق ، ص 48.
- 26 عز الدين جلاوي ، المرجع نفسه ، ص 100.
- 27 المرجع نفسه ، ص 79.
- 28 محمد أركون، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، تر: هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت، ط 2، 2005، ص 06.
- 29 عز الدين جلاوي، المرجع السابق ، ص 113، 114.
- 30 عز الدين جلاوي ، المرجع نفسه ، ص 117-119.
- 31 محمد أركون، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني ، ص 06.
- 32 عز الدين جلاوي، المرجع السابق ، ص 30.